

البيئة وأثرها

فى العقول

يستمد الإنسان تصوراتہ، وتربى إدراكاته على حسب ما يراه ويحيط به من المشاهدات والمعقولات. وعلى قدر بلوغ ذلك من نفسه، واستيلائه على حواسه، تكون درجة الإدراك لديه. فإذا كانت المشاهدات كثيرة مختلفة، كانت قوة الموازنة وحب الاستطلاع والرغبة فى البحث أعظم وأدعى إلى نمو العقل والإدراك، وكبرت فى نفسه ملكة التمييز بين الأشياء، وصار ذلك شبه خلق له، فيصبح وقد تربى على نوع خاص من الذكاء والملاحظة، وتشكلت نفسه وإدراكاته ومعلوماته بهذا الشكل الخاص، الذى ينبئ عن حياته العامة التى كانت له فى هذه البيئة الخاصة. وكانت تصوراته وتشبيهاته مأخوذة عن ذلك، وأفكاره ومعقولاته صورة من الاجتماع الذى عاش فيه، وأثراً من آثار تلك البيئة. وباختلاف البيئة يكون اختلاف الناس فى عقولهم وإدراكهم وتربيتهم: فليس من يعيش بين العلماء كمن يعيش بين الجهلاء، ولا من نشأ فى بيت كريم كمن نشأ بين السوق والسفلة.

لذلك كان من عمل الناقد، أن ينظر إلى هذه الأسباب ليتمكن من الحكم على آراء الكتاب والمفكرين حكماً صحيحاً، وليعرف أسباب المؤثرات الفعالة. فالذى عرف البلاغة "بأنها ما بلغ بك إلى الجنة وعدل بك عن النار"، كان متأثراً بالبيئة الاجتماعية الدينية التى عاش فيها. فلا يصح أن يؤخذ هذا التعريف كما هو، وإلا ما هى الصلة بين البلاغة وبين الجنة والنار؟ والذى قال: "إن دراسة الأدب بأجمعه من تاريخ وفنون، ونم شعر ونثر، إنما

هى وسيلة لفهم كتاب الله تعالى " لا يصح أن يعد من الأدباء، لأن أدبيًا من الأدباء الذين يفهمون الأدب، ويقولون إنه صورة النفوس والعقول، وحالة من أحوال الاجتماع، لا يقول ذلك. وإنما هذه نتيجة التربية العقلية عند فقهاء المسلمين، الذين اشتغلوا بالأدب وجمعه وعنوا به من أجل ذلك، ونشروا هذا الرأى وأشاعوا هذه الفكرة، فأخذها الناس عنهم كما هى بدون بحث ولا نقد. وكن يمكن الرجوع إلى الأدب وبلاغة العرب لفهم ما فى كتاب الله تعالى، بدون أن يكون ذلك الغرض الفذ من دراستها. ولكن أدباءنا وأكثرهم من الفقهاء صرفوا همتهم إلى الوجهة الدينية فقط. هذا أثر للبيئة الاجتماعية وأثر اتجاه العقول والأفكار اتجاهاً خاصاً. وهذا يفسر معنى صلة هذه الأسباب بالأدب والنقد.

الإنسان كما قلنا ثمرة البيئة الطبيعية والاجتماعية، والأدب والبلاغة من شعر ونثر ومن كتابات اجتماعية وفلسفية وغيرها - من أثر العقول والقرائح - ثمرة من ثمار الإنسانية. ونتيجة تربية العقول والنفوس. فإذا كانت الأمة فى مبدأ تربيتها العقلية وأول نشأتها كالطفل، لا يعرف إلا ما يقع عليه نظره، ولا يدرك إلا ما يخطط به، أصبحت معلوماتها منحصرة فى ذلك، وخيالاتها مقصورة على ما ترى وتسمع حولها. فإن لم تكن محبة للبحث والتنقيب، ولا راغبة فى الاستطلاع، بقيت فى هذا النوع من التربية الأولية، وبعض الأمم يموت ويعيش وهو فى شباب الحياة وطفولة التربية. لأن البيئة الاجتماعية لم تدفعه إلى حب الاستطلاع، ولم تولد فيه البحث فى معرفة الجمال وفهمه.

والعرب فى عيشتهم وحياتهم البدوية الصرفة، لم يخرجوا عن الدائرة

التي وضعتهم فيها طبيعة بلادهم، ولم يروا غير هذه الصحراء الواسعة وما توحيه إلى النفوس من العظمة والهيبة، والغموض الذي تضل فيه الظنون، ثم هذا البسط "اللانهائي" الذي يحمل على الظن بأن الحياة لا تتغير، وكأن الإنسان يخلق ويموت وهو على حال واحدة من العيش، وأن هذه الحياة البدوية الساذجة هي كل شيء، وأن الشجاعة والكرم والمروءة هي كل فضيلة، وكأنه ليس وراء ذلك من فخر، وكأن العصبية والإغارة على الأعداء والانتصار عليهم هي كل ما يفهم من معنى الشجاعة، وأن العربي في حريته واستقلاله أفضل إنسان وأكرم نفس وأرقى مخلوق. كذلك تكونت خيالات العربي على ما يرى وما يحيط به من حيوان ونبات، ولم يكن لديه من الفرصة ما يمكنه من معرفة أحوال الأمم الأخرى، فنشأ قانعاً بما لديه، راضياً بحالته. لأنه ظنها أفضل وأكمل من غيرها. فلم يرغب في تغيير حالته الاجتماعية، ولم يأخذ عن غيره، لأن ذلك لم يكن متيسراً له في حالته الأولى، ولأن الحاجة لم تحمله على ذلك لاقتناعه بما لديه من كل شيء حتى في العلوم والمعارف، ولأنه كان يرى سعادته في هذه الحال. والإنسان إن لم تدفعه الحاجة لا يميل إلى العمل، ولا يحب التعب. كل ذلك أثر البيئة الطبيعية والاجتماعية عند العرب. وهي بنفسها التي نراها في بلاغاتهم وأشعارهم. فقد امتلأت خيالاتهم بما كان يحيط بهم، ولم تتعد أفكارهم البيئة التي كانوا يعيشون فيها. فكان إذا وصف أو أشبه أحدهم شيئاً أخذ خياله وفكره مما يحيط به، وذكره على سذاجته لأنه كان يميل في الافتنان والصناعة إلى إلهاماته، وما توحى إليه فطرته، فكانت السذاجة تظهر في كل شيء من كلام وشعر وخيال. ومع أن هذه السذاجة البدوية هي عيب الشعر العربي لأن الحقائق "العريانة" كما يقولون ليست مقبولة لدى كل نفس، ولا

يتذوقها كل إنسان خصوصاً في الشعر والبلاغة، إذ لا بد من الافتنان في إظهار المعاني المقصودة، ولا بد أن يعترى المتفنن من الحيرة والشك في الوصول إلى أغراضه ما يحمله على البحث والتنقيب حتى يصل إلى ما يقرب من الإتقان والكمال والإبداع. مع أن هذا هو عيب الشعر العربي البدوي، فهو أيضاً كل ما فيه من الجمال. لأن السذاجة الفطرية، أو الكلام المطبوع الذي تظهر فيه طبيعة الإنسان كما هي، له نوع خاص من القبول والاستمراء. وقد تدعو هذه الحال إلى الإعجاب.

هذه السذاجة التي اكتسبها البدوي من البيئة التي يعيش فيها هي روح الشعر العربي التي اكتسبته هذه العذوبة وهذا الجمال اللذين لا يوجدان دائماً في الشعر الحضري. لأن إطلاق العربي لنفسه العنان يقول كما توحى إليه فطرته، ويملى على ضميره من السذاجة المقبولة المحبوبة السائغة على النفوس، هو السر في حياة هذه البلاغة ومظهر جمالها^(١).

(١) مما يصح أن يكون دليلاً على أثر البيئة أنه قدم أحد شعراء البادية على أمير من أمراء الحواضر فمدح الأمير بقوله:

أنت كالدلو لا عد منك دلواً من كثير العطا قليل الذنوب
أنت كالكلب في الحفاظ على الود وكالتيس في قراع الحروب

فهم بعض أعوان الأمير بقتله، فقال الأمير خل عنه فذلك ما وصل إليه علمه ومشهوده، ولقد توسمت فيه الذكاء فليقم بيننا زمناً وقد لا نعدم منه شاعراً مجيداً. فما أقام بضع سنين في سعة عيش وبسطة حال حتى قال الشعر الرقيق الآخذ بمجامع القلوب وهو في زعم بعضهم صاحب الأبيات التالية:-

يا من حوى ورد الرياض نجده وحكى قضيب الخيزران بقده
دع عنك ذا السيف الذي جردته عينك أمضى من مضارب حده
كل السيوف قواطع أن جردت وحسام لحظك قاطع في غمده
إن رمت تقتلني فأنت مخير ما ذا يعارض سيداً في عبده =

فانظر هذه التشبيهات وأثر البيئة فيها وما رسمته فى نفس الشعراء ، مثل ما قال بعضهم وقد حلق رأسه .

فأصبح رأسى كالصحيرة أشرقت عليها عقاب ثم طار عقابها وقالوا إن هذا البيت من المعانى المحدثه المقبولة لدى الأفكار والعقول . فالحال السياسية والحال الاجتماعيه ، والحال الفكرية . لها أثر عظيم فى البلاغات والأدب ، لأنها سائرة وراء الاجتماع " حذو النعل بالنعل " كما يقول المثل العربى . وقد ظهر بعض هذه الآثار فى الشعر العربى ، لأن الشعر هو كل الأدب العربى ، أو هو مجموع الصورة العامة لبلاغة العرب ولحركات أفكارهم . والبيئة الاجتماعية أقل أثراً وظهوراً من البيئة فيه ، بدليل أن الاجتماع تغير تغيراً عظيماً ، وتناوبته الممالك والدول ، والشعر العربى لم يتغير فى جملته ولم تعتوره أطوار الاجتماع . بل كان الشاعر الحديث يسطو على المعنى القديم فيصقله فى قالب جديد من الألفاظ ، ويكسوه ثوباً آخر لينسب إليه . ونحن لانرى هذا أثراً للاجتماع ، وإنما هو صرب من رقى الخيال ، لأنه لا يدل على حالة الاجتماع السياسية ، ولا على أى نوع من حياة الأمة . وكان من الممكن أن نرى تقلبات الدول والحوادث الكثيرة التى ملأت تاريخ المسلمين

= هذا أثر البيئة فى النفس والخيال ، والشعر العربى الجاهلى كله معطر بأثر الصحراء وما بها . وهل أدل على ذلك من قول امرئ القيس :

تصد وتبدى عن أسيل وتتقى	بناظرة من وحش وجرة مطفل
وجيد كجيد الرئم ليس بفاحش	إذا هى نصتـه ولا بمعطل
وكشح لطيف كالجديل مخصر	وساق كأنبوب السقى المذل
وتعطو برخص غير شئن كأنه	أساريع ظبى أو مساويك أحسل
كبكر المقناة البياض بصفرة	غذاها نيمر الماء غير المحلل

ظاهرة فى بلاغاتهم . ولكننا لم نر فى بلاغات العرب أصدق وأدل على الاجتماع من الشعر الجاهلى ، لأن الشعر إذ ذاك كان بمثابة الحديث والمسامرات اليومية والكلام الاعتيادى . وفى مدة الأمويين كان يدل على شىء من الحالة الاجتماعية دلالة إجمالية . وكان أثر البيئة الاجتماعية ظاهراً بعض الشىء فى المدح والذم بين الشعراء ، وفى قصائدهم إلى خلفاء بنى أمية . ولم يكن دالاً تمام الدلالة على الحياة ، لأن هذه كانت مناقشات شخصية لأهواء شخصية . وكان أكثر ذلك ناشئاً من ميل الشعراء إلى التكسب ، ولم يكن فى الشعراء ، أو لم يكد يوجد بينهم من كان ذا أغراض اجتماعية ترمى إلى إصلاح الاجتماع ، أو إلى تربية الأفكار وتهذيبها . وكل ما كان من الصديق فى نفوس الشعراء كان عبارة عن عواطف نفسية ، يرجع أكثرها إلى شىء من العقائد الدينية ، أو إلى تأييد مذهب سياسى وكراهة إحدى البيوتات الحاكمة . كما مدح الفرزدق زين العابدين فى قصيدته المعروفة ، عندما تظاهر بعدم معرفته هشام بن عبد الملك ، لما رأى من إقبال الناس على على بن الحسين فقال : " من هذا الشاب الذى تبارق أسرة وجه كأنه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحى وجوهها " فقال الفرزدق : " هذا الذى تعرف البطحاء وطأته " الخ القصيدة . ومع ذلك فقد كان الشعر مدة الأمويين أقرب إلى الجدم منه إلى التسلية والمجون . وكانت لا تزال الصبغة العربية ظاهرة فيه وفى مجموع أوصافه : من الصراحة وحرية القول ، وعزة النفس وغيرها من الأخلاق العربية .

أما فى زمن العباسيين فقد ظهر أثر البيئة فى نوع خاص من الشعر . لأن بيئة خاصة أثرت فى الشعر : وهى بيئة المجون واللهو والطرب . وأشهر

شعراء هذا العصر كانوا من هؤلاء، كأبي نواس وبشار وابن الضحاك وغيرهم ممن أكثروا من وصف الغلمان والخمر ومجالس اللهو وكانت هذه حال البلاغة في العصر الأول العباسي، مما لا يكاد يخرج عن التسلية والمجون. وكانت مجالس الخلفاء والأمراء غاصة بالغناء والمغنين، وكانت الأشعار التي تغنى لا تخرج عن وصف الحب والغرام والخمر، وكانت المجامع في ذلك العصر أشبه بالجنان ونعيمها. وشجع الخلفاء والأمراء الشعراء على ذلك، فانكب هؤلاء على هذا النوع من الشعر الوجداني، وانتشر الغناء، وكانت مجالسه حافلة بالأدباء والشعراء، (تشبه المجتمعات التمثيلية عندنا اليوم). ولم يؤثر انتشار الفلسفة في الشعر إلا في أواخر الدولة العباسية عند مثل المتنبي وأبي العلاء، أى عندما أخذت العقول تنضج وترقى، وترى وتفهم من الأدب غير ما كان يراه ويفهمه الأولون: غير أن هذا العصر لم يطل، ولم نكد تظهر فيه المذاهب العربية وأثر الإسلام في الرقى، حتى وقفت حركة العلم والأدب، وهزمت العجمية العربية بسيلها الجارف، فوقفت حركة العقول والأفكار.

أما أبو نواس وأمثاله فكانوا شعراء وجدانيين، وخلعاء متهتكين، لم يهتموا بحالة الاجتماع ولم يكن عندهم من التربية والتعليم ما يساعدهم على ذلك، ولم تدفعهم البيئة إلى هذا النوع من الشعر^(١).

(١) ولم يخطر ببال أحدهم أن يدعو الناس إلى الشعر الاجتماعي، ولا إلى الشعر التمثيلي، كما كانت الحال مدة لويس الرابع عشر في فرنسا، فإنه وإن كان الغرض من التمثيل إذ ذاك التسلية والانشراح، فلم يغب عن الشعراء والكتاب أن يجيئوا في أشعارهم وقصصهم بالعبرة ونقد الاجتماع، وكتبوا الكتابات النقدية الممتعة، وأتقنوا الصنعة، ولكن في غير الألفاظ بل في بث الأفكار وتأثيرها، كما فعل مولير في قصصه الهزلية التي كان ينتقد فيها الاجتماع وما فيه من الرذائل. فقد كانت قصصه مضحكة سائغة خفيفة الروح، ومع ذلك كان بها من الحكم والمواظ ونقد الاجتماع أكثر مما فيها من الهزل=

ولم يفهم الناس هذا الضرب من الأدب الاجتماعى . وكان إذا أراد أحدهم أن يقول شيئاً من ذلك أو ما يقرب منه أفصح إفصاحاً، وبث الموعظة على أنها موعظة ونصيحة . ولو أنه فكر فى وضع أفكاره ونصائحه فى قصة لكانت أوقع وأشد فعلا فى النفس من قص الكلام قصاً وسرداً . ولكن العقول لم تكن نضجت بعد، ولم يصل الأدب إلى الحالة التى كانت تلهم الشعراء نوعاً جديداً فى الكلام والصناعة على أن بها من جمال القول ومثانته ما لو وضعه شاعر عصرى فى قالب قصصى لوصل إلى ما وصل إليه موليير وغيره .

=والسخرية . ولا تزال قصص موليير من أبدع القصص فى نوعها، ولا يزال لها شأن كبير فى الأدب : ذلك لأن كبار الكتاب كانوا من كبار المفكرين . وقد كانت سير بعضهم الشخصية لا تقل عما كان عليه أبو نواس وأمثاله . فإن حياة موليير المنزلية معروفة تكاد تفوق فى المحزون والهزل ما كان عليه بعض شعراء العباسيين . ولكن موليير كان شاعراً اجتماعياً وكاتباً خليقاً برع فى نوع من الهزل النقدى الاجتماعى .